السوس الأقصى
منذ ظهور دعوة الموحدين حتى نهاية دولتهم
(٥١٥ – ٦٦٧ هـ/ ١١٢١ – ١٢٦٨م)

عُمر بكر محمد قطب

مدرس مساعد التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ الإسلامي – كلية الآداب
جامعة المنيا – جمهورية مصر العربية

بيانات الأطروحة

أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ الإسلامي – كلية الآداب
جامعة المنيا – مصر (ديسمبر ٢٠١٣).

إعداد: عمر بكر محمد قطب
إشراف: أ.د. صلاح أحمد عيد

كلمات مفتاحية:

محمد بن تومرت، الموحدين، التاريخ المغربي، السوس الأقصى، المغرب الأقصى

مُقدِّمة

كانت منطقة المغرب الأقصى ولا تزال مادة خصبة للدراسة والبحث لدى المهتمين بتاريخ هذه المنطقة الشاسعة في بلاد المغرب الإسلامي لما تضمنته هذه البقعة من أحداث سياسية فاصلة ومؤثرة وجوانب حضارية راقية أضافت لتاريخ المغرب الإسلامي الكثير من رونقه وجماله وحضارته، وكان لبلاد السوس بقسميها الأدنى والأقصى دورٌ كبيرٌ في تسطير الأحداث السياسية والأوضاع الحضارية لمنطقة المغرب الأقصى.

أما عن بلاد السوس الأقصى – منطقة الدراسة – فكانت صاحبة النصيب الأكبر في سياسة بلاد السوس وحضارتها في تاريخها الإسلامي، وكان من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع هو ما تبين من ندرة الكتابات التي تناولت هذه المنطقة وتاريخها وحضارتها، بل كل ما ظهر من هذه الكتابات التي تتعلق بتاريخ بلاد السوس إما أنها تتحدث بشكل عام عن بلاد السوس دون تخصص أو اهتمام خاص بأحد قسميها الأدنى أو الأقصى أو انها تتناول تاريخ هذه المنطقة ولكن في عصور حديثة بعيدة نسبيًا عن العصور الوسطى الذي شهد فيها الإسلام وتاريخه قوة وبأسًا كبيرًا، لذا كانت الرغبة في دراسة هذه المنطقة – بلاد السوس الأقصى – في العصر الإسلامي وخاصة في القرنين ٦،٧هـ / ١٢، ١٣م دافعًا كبيرًا لاختيار موضوع هذا البحث، فقد تميزت هذه الفترة التاريخية بقيام أحداث هامة وكبرى مثل سقوط دولة المرابطين القوية التي طالما كان لها دورٌ كبيرٌ في دعم الإسلام واستقراره في بلاد المغرب الإسلامي، وأيضا ظهور دعوة الموحدين وقيام دولتهم في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وما كان لهذه الدولة من نفوذ كبير وانتصارات عظيمة في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس.

اشكالية الدراسة

تطرح هذه الدراسة كثيرًا من التساؤلات التي حاول الباحث من خلال دراسته وبحثه إيجاد أجوبة مناسبة لهذه التساؤلات التي منها: ما هي الحدود الجغرافية التي تفصل بين بلاد السوس الأقصى وبلاد السوس الأدنى؟ وهل هناك خريطة جغرافية محددة لبلاد السوس الأقصى؟ هل كان فتح بلاد السوس الأقصى فتحًا إسلاميًا خالصًا يهدف لنشر الدين الإسلامي أو كان لفتحه أهدافٌ أخرى؟ وما هو دور بلاد السوس الأقصى في ضعف الوجود المرابطي وتثبيت دعائم البيت الموحدي؟ هل كان لهذه المنطقة دورٌ في ضعف الدولة الموحدية وإسقاطها ؟ وكيف تشكلت حضارة بلاد السوس الأقصى في عهد دولة الموحدين؟.

منهج الدراسة

في هذه الدراسة، تم الاعتماد على المنهج السردي والتحليلي للأحداث التاريخية والمقارنة بين الروايات التاريخية والجغرافية المتباينة للوصول إلى أقرب الروايات دقة، معتمدًا في ذلك على مصادر

التاريخ والجغرافيا والرحلات وغيرها، ثم استخدام هذه المادة التاريخية وتطويعها حسب متطلبات الدراسة.

محتويات الدراسة

تم تقسيم هذه الدراسة إلى بابين رئيسين، كل منهما يحتوى على ثلاث فصول رئيسة ومباحث فرعية تغطى بدورها الأفكار الهامة لكل فصل على حده، ثم الخاتمة، أما **الباب الأول** فجاء بعنوان "الأحوال السياسية لبلاد السوس الأقصى في عهد دولة الموحدين" ويضم ثلاث فصول؛ **الفصل الأول** "نشأة محمد بن تومرت ودعوته في بلاد السوس الأقصى" ويعالج هذا الفصل دور بلاد السوس الأقصى في قيام دعوة ابن تومرت وتثبيتها في سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م) حتى وفاته سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)، والتطرق إلى بعض النقاط التي استحوذت على اهتمام وتباين آراء المصادر التاريخية مثل قضية نسب محمد بن تومرت ذاته والاختلاف حول هذه القضية، ذلك الاختلاف الذى تمثل في كونه هل كان ابن تومرت يحمل النسب الشريف لعلي بن أبي طالب كما قالت بعض المصادر أم كان يحمل نسبًا سوسيًا خالصًا.

أما **الفصل الثاني** فجاء بعنوان "بلاد السوس الأقصى في عهد حكام الموحدين العظام"، ويهدف هذا الفصل إلى التعرف على الأحداث السياسية التي تعلقت ببلاد السوس الأقصى في عهد القوة والنفوذ الكبير لدولة الموحدين وذلك من سنة (٥٢٦هـ/ ١١٣٢م) حتى سنة (٦١٠هـ/ ١٢١٣م)، مثل ثورة محمد بن هود الماسي في بلاد السوس الأقصى، تلك الثورة التي كادت أن تقضي على سلطان الموحدين في بدايته، أما **الفصل الثالث** فيحمل عنوان "السوس الأقصى في عهد الضعف والسقوط الموحدي" وفيه يحاول الباحث التأكيد على دور بلاد السوس الأقصى الكبير والخطير في إضعاف السلطة الموحدية وسقوطها في الفترة التاريخية من (٦١٠هـ/ ١٢١٣م) حتى سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٨م)، متطرقًا في ذلك الفصل إلى دور بعض القبائل السوسية في إسقاط دولة الموحدين بجانب دراسة إمارة على بن يدر في بلاد السوس الأقصى ودورها في اضعاف السلطان الموحدي حتى سقوطه.

أما **الباب الثاني** فيحمل عنوان "الأوضاع الحضارية في بلاد السوس الأقصى في عهد دولة الموحدين" ويشمل ثلاث فصول؛ **الفصل الأول** بعنوان "الحياة الاجتماعية في بلاد السوس الأقصى"، وفيه يدرس الباحث المجتمع السوسي من حيث عناصر السكان التي ظهرت في بلاد السوس الأقصى والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية التي سادت هذه المنطقة في هذه الفترة الزمنية، وأيضًا دراسة أحوال أهل الذمة في بلاد السوس الأقصى، أما **الفصل الثاني** بعنوان "الحياة الاقتصادية في بلاد السوس الأقصى"، ويحتوي هذا الفصل على دراسة لحضارة بلاد السوس الأقصى الزراعية من حيث دراسة ملكية الأراضي الزراعية وأنواعها، ثم دراسة السواقي التي ظهرت في زراعة بلاد السوس الأقصى يتبعها دراسة لأهم المحاصيل الزراعية التي ظهرت في بلاد السوس الأقصى.

ثم تتطرق الدراسة إلى البحث في أهم الشواهد الصناعية التي كانت نتاج حضارة بلاد السوس الأقصى، وفي هذا العنصر تم دراسة أهم الصناعات التي ظهرت في ذلك المكان مثل صناعة السكر والنسيج والزيوت وغيرها، أما دراسة التجارة فكانت هي العنصر التالي، فقد تمت دراسة أهم الطرق التجارية الداخلية والخارجية التي ربطت الحركة التجارية بين إقليم السوس الأقصى وغيره من مناطق بلاد المغرب الإسلامي والمشرق الإسلامي والأندلس، ثم تم دراسة الأسواق التي ظهرت في إقليم بلاد السوس الأقصى يليها دراسة العملة والضرائب، وهي كلها شواهد تجارية كبيرة تدل على قيمة هذا الإقليم الحضاري الكبير في العصور الوسطى. وما يتعلق بكل جانب من هذه الجوانب الاقتصادية من مادة تاريخية حضارية.

أما **الفصل الثالث** والأخير فيحمل عنوان "الحياة الثقافية في بلاد السوس الأقصى" ويفرده الباحث لدراسة الحياة الدينية والعلمية التي شهدتها هذه البلاد في تلك الفترة التاريخية الهامة، فشلمت دراسة الحياة الدينية ذكر الأربطة والمساجد التي بُنيت في إقليم بلاد السوس الأقصى، ثم دراسة المذاهب والفرق الدينية في تلك المنطقة، أما في دراسة الحياة العليمة فقد تم دراسة اللغة والمدارس التي شهدتها تلك الحياة في إقليم السوس الأقصى، مرورًا بدراسة الأسر العلمية السوسية ثم العلوم التي ظهرت في إقليم السوس الأقصى في عصره الوسيط.

ثم جاءت **الخاتمة** لتحوي على أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، وقد تلخصت هذه النتائج في بعض النقاط التي يحسب الباحث أنها محاولة لسد بعض الفراغ في دراسة منطقة بلاد السوس الأقصى، مثل الوصول إلى التحديد الجغرافي ورسم خريطة محددة إلى حد ما لمنطقة بلاد السوس الأقصى في فترات زمنية مختلفة معتمدًا في وضع تلك الخرائط على التطور العمراني الزمني على مدار عشرة قرون هجرية، وبجانب ذلك جات الخاتمة لتؤكد على النسب السوسي لمحمد بن تومرت معتمدًا على الروايات التاريخية الأقرب للصحة ومقارنتها للروايات المناقضة لهذا الرأي، وكانت أهم النتائج تتلخص في إبراز حضارة بلاد السوس الأقصى التي طالما قل الكشف عنها وخاصة في الفترة الزمنية السابقة للقرن الثامن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

وعلى الرغم من وفرة هذه الفصول في الدراسة، فإنه قد واجهتني صعوبة في أثناء القيام بهذه الدراسة، لعل أبرز هذه الصعوبات هو ما تعلق بهذه المنطقة الجغرافية النائية البعيدة في منطقة المغرب الأقصى من قلة المادة التاريخية وخاصة الحضارية منها، فقد اشتملت أغلب المصادر التي استعنت بها على سطور قليلة فيما يتعلق دراسة حضارة بلاد السوس الأقصى، ولكني حاولت التغلب على هذه الصعوبة قدر المستطاع عن طريق الاستعانة بالمصادر المتنوعة ككتب الجغرافيا والرحلات والنوازل بجانب ما أتاحته لي الدوريات العلمية عن طريق الأبحاث المنشورة بها من تشكيل لهذه الأبعاد الحضارية في تلك البلاد النائية.

ومن المصادر التي شكلت المعين الأساسي لهذه الدراسة وكانت الإفادة الأكبر منها فيما يتعلق بالدراسة السياسية كان كتاب "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين" للمؤرخ المعاصر "أبى بكر البيذق الصنهاجى" والذي أمدني بأغلب المادة التاريخية التي تتعلق بحياة ابن تومرت ودعوته في بلاد السوس الأقصى، وكتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" قسم الموحدين" لـ "ابن عذارى المراكشى" والذى يُعَدّ أكثر المصادر ثراء بالدراسة السياسية لدولة الموحدين بشكل عام، والأحداث المتعلقة ببلاد السوس الأقصى بشكل خاص، وقد أفادني بشكل كبير في الحياة السياسية لبلاد السوس الأقصى في عصر الدولة الموحدية، وكتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" للمؤرخ "عبد الواحد المراكشي" ، والذي أفرد بدوره في هذا الكتاب نقاطًا خاصة لبلاد السوس الأقصى حتى وإن كانت قليلة ولكنها أبرزت بعض الجوانب الحضارية لهذه البلاد، وكتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر" لـ "ابن خلدون"، هذا الكتاب الذى لا غنى عنه في كتابة تاريخ المغرب الإسلامي نظرًا لما تضمنه من معلومات وافية عن القبائل التي سكنت بلاد السوس الأقصى وطبيعة معيشتها.

أما ما يتعلق بمصادر المادة الحضارية الخاصة ببلاد السوس الأقصى، فيأتي في مقدمتها كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب" لـ "أبي بكر البيذق الصنهاجي" وقد استفدت منه كثيرًا فيما يتعلق بدراسة القبائل السوسية ورجالاتها، ثم يأتي كتاب "الاستبصار في عجائب الأمصار" لمؤلف مجهول عاش في القرن (٦هـ/١٢م)، وقد أفرد هذا المؤلف ما يقرب من (٣) صفحات تحتوي على جزء كبير من حضارة بلاد السوس الأقصى، وكتاب "المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من نزهة المشتاق" لـ "الشريف الإدريسي"، وقد أفادني هذا الكتاب على معلومات قيمة وجيدة فيما يتعلق بحياة القبائل السوسية وطعامهم وشرابهم وزيهم وغير ذلك، وأيضًا كتاب " وصف أفريقيا" لـ "الحسن الوزان"، وعلى الرغم من كونه مصدرًا متأخرًا فإنه أفرد بابًا كاملاً للحديث عن بلاد السوس بشكل عام تحدث فيه عن القبائل السوسية من العرب والبربر وعاداتهم وتقاليدهم وحياتهم العامة.

أما عن أهم المراجع التي أفادتني في دراستي هذه فمنها كتاب "دولة الإسلام في الأندلس" لـ" محمد عبد الله عنان"، وهو كتاب يقع في ثمانية أجزاء، كان للجزأين الرابع والخامس دورٌ كبيرٌ وهامٌ في دراسة الحياة السياسية لدولة الموحدين وما تضمن هذه الحياة من أحداث ارتبطت بمنطقة السوس الأقصى بشكل كبير، ثم كتاب "تاريخ المغرب العربي" لـ "سعد زغلول عبد الحميد"، وهو كتاب يقع في سبعة أجزاء أفادني منها الجزء الخامس الذي يتعلق بتاريخ دولة الموحدين السياسي، وخاصةً الفترة التي تضمنت دعوة ابن تومرت في بلاد السوس الأقصى، وفي الجانب الحضاري كان لكتاب "قبائل المغرب" في جزئه الأول لمؤرخ بلاد المغرب "عبد الوهاب بن منصور" دورٌ كبيرٌ في دراسة القبائل السوسية ومجتمعها وحياتها، ثم كتاب " النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي خلال القرن ٦ هـ" لمؤلفه "عز الدين عمر موسى" دورًا كبيرًا في التعرف على الجوانب الاقتصادية للبلاد السوسية من زراعة وصناعة وتجارة، ثم تأتى المؤلفات المتنوعة لعلامة بلاد السوس في العصر الحديث وهو "محمد المختار السوسي" مثل كتاب "سوس العالمة" و "خلال جزولة" و "مدارس سوس العتيقة" لتكون زادًا وافيًا لدراسة الجوانب الثقافية والعلمية في بلاد السوس الأقصى.

خلاصة

جاءت هذه الدراسة لتحاول إلقاء الضوء على منطقة السوس الأقصى التي ظلت على مدار التاريخ المغربي في عصره الإسلامي منطقة لها من القوة والتأثير في الأحداث التاريخية المتباينة وخاصة في عصر دولة الموحدين، وأرجو أن أكون وفقت في هذه المحاولة المتواضعة.